الأرنب أوشوايا

(1)

فرغتُ توًّاً من قراءة صحيفة ورد بها ما يلي: "نجحت مجموعة من العلماء الأرجنتينيين، بعد شهور طويلة من المحاولات العقيمة وعديد من البعثات الاستكشافية، في العثور على أرنب من نوع أوشوايا، كان يُظنُّ أنه انقرض منذ أكثر من قرن. وكانت المجموعة، التي يقودها الدكتور أدريان برتوني، قد اصطادت الأرنب في واحدة من الغابات العديدة المحيطة بمدينة باتاجونيانا [1]

وكان يجدر بي، وأنا أفضل التفاصيل على العموميات، وأميل للدقة لا للأفكار سريعة الزوال، أن أقول: "في واحدة من تلك الغابات القريبة من عاصمة تييرا ديل فويجو[2]. ولكن يتعذر أن تجد دماءً في اللفت، أو أي درجة من الذكاء، إطلاقًا، عند صحفيين.

إنني أنا الدكتور أدريان برتوني، ولا أدري لم أخطأوا في كتابة إسمي؛ فإسمي الصحيح هو "أندريه برتولدي"، وأنا – في الحقيقة –

1– منطقة تقع في أقصى جنوب القارة الأمريكية الجنوبية، ويتقاسم السيادة فيها كل من الأرجنتين وشيلي.

2– إحدى محافظات الأرجنتين. يفصلها مضيق ماغلان عن بقية أراضي الأرجنتين

حاصل على درجة الدكتوراة في العلوم الطبيعية، ومتخصص بعلم الحيوان، والانقراض، والأنواع من الكائنات الحية المهددة به.

والأرنب أوشوايا، في حقيقة أمره، لا ينتمي للأرنبيات، وهو أدنى بكثير من أن يكون قطًا. وليس من المؤكد أن موطنه غابات تييرا ديل فويجو. والأكثر من ذلك أنه ليس النوع الذي كان يعيش في جزيرة لوس إستادوس. والأرنب الذي حصلتُ عليه، بمفردي، دون أي معدات، وبلا مساعدة من أي إنسان، ظهر في مدينة بوينس آيرس، بالقرب من جسر سكة حديد سان مارتن، الذي يمتد موازيًا لشارع خوان ب. جوستو، وهو يقطع شارع سولير، في منطقة باليرمو.

ولم يكن في نيتي البحث عن الأرنب أوشوايا، إذ كانت لي مشاغل أخرى، وكنت – وأنا كاسف البال إلى حد ما – أقصد ممر المشاة في شارع خوان ب. جوستو. وكان الجو حارًا، وورائي مهمة غير سارة، ولا أقول مقلقةً، أقوم بها في مصرف بممر سانتا–في. ويوجد بين الجسر وممر المشاة سياج شبكي مدعوم بجدار منخفض؛ وقد لمحتُ الأرنب أوشوايا على الجانب الآخر من السياج. وقد تحققتُ منه فور أن رأيته، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا. ولكن ما أدهشني هو أنه، في الحقيقة، كان باقيًا في مكانه، فهو في أحواله الاعتيادية حيوان وثَّاب ومقلقل. فخشيتُ أن يكون مصابًا بجروح.

وبصرف النظر عن حالته، قمت بالتراجع لأمتار قليلة، وتسلقتُ السياج، ثم دلَّيتُ جسمي إلى الأرض، على نحو ما تفعل القطط. وتقدمتُ خِلسةً، وأنا خائف من أن يفر الأرنب أوشوايا في أي لحظة، ومن يستطيع أن يمسك به إن فرَّ؟. إنه واحد من أسرع المخلوقات، ولا يفوقه سرعةً، من حيث القيمة المطلقة، وليس من الناحية النسبية، إلا الفهد.

(2)

التفت الأرنب أوشوايا شاخصًا إليَّ، ولم يفر، على عكس ما توقعت، وبقي ماكثًا في مكانه، لا يهتز فيه إلا حزمة من الشعر الفضي، كأنها تتحداني. وخلعتُ قميصي وانتظرتُ، جامدًا بلا حراك، عاري البشرة، وظللت أردد: اهدأ .. اهدأ .. اهدأ. وعندما أصبحت على مقربة منه، طرحتُ القميص ببطء، كما لو كان شبكةً، ثم – فجأةً وبحركة سريعة واحدة – وضعته على الأرنب، أحطُّه به، في لفافة أنيقة. وعقدتُ الأكمام وذيل القميص عقدةً قوية، مكنتني من أن أحمل الصُّرَّةَ بيدي اليمنى، بينما اليسرى تعالج أمر السياج، فاجتزته من جديد، عائدًا إلى الرصيف.

ولم أستطع، بطبيعة الحال، أن أذهب إلى البنك بدون قميص، ناهيك عن وجود الأرنب أوشوايا بصحبتي. وهكذا، توجهتُ إلى المنزل، وفيه شقتي بالطابق الثامن، وتطل على شارع نيكاراجوا، بين كارانزا وبونبلاند. وفي الطريق، ملتُ إلى متجر للتجهيزات، اشتريتُ منه قفص طيور كبير الحجم.

كان البواب يغسل الرصيف أمام البناية، ورآني وأنا عاري الصدر، وفي يساري قفص، وفي يمناي ربطة بيضاء لا تكف عن الحركة، وكانت نظرته تحمل الدهشة أكثر من الاستنكار. ولسوء حظي، كانت إحدى الجارات تتبعني من الشارع حتى دخلت إلى مصعد البناية، وكانت تسحب بيدها جروًا صغيرًا قبيحًا مثيرًا للاشمئزاز، ما إن تعرَّف على رائحة الأرنب أوشوايا، التي لا تشعر بها الأنف الآدمية، حتى انطلق في نباح يصمُّ الآذان. ولم أتمكن من تخليص نفسي من تلك المرأة وكابوسها المخيف إلا بوصول المصعد إلى الطابق الثامن.

دخلتُ إلى شقتي وأغلقتُ الباب، وأعددتُ القفص، وبدأتُ أفك القميص بعناية فائقة، محاولًا عدم إزعاج أو التسبب في إيذاء الأرنب أوشوايا. وعلى أي حال، فقد أغضبه احتباسه بالقفص، فلما فتحت له بابه، عجزتُ عن جعله يتوقف عن ضرب ذراعي بشوكة من كفه.

وكنتُ حاضر الذهن بما يكفي ليجعلني لا أدع الألم يدفعني لأن أتركه لحال سبيله؛ وأخيرًا تمكنت من أن أحاوره وأناوره، حتى عاد إلى القفص.

(3)

وفي الحمام، غسلتُ الجرح بالماء والصابون، منتهيًا بالكحول الطبي. ثم خطر ببالي أن أتوجه إلى صيدلية لآخذ حقنة مضادة للتيتانوس، ففعلتُ

علـى عجـل. وغـادرتُ الصـيدلية متوجهًـا مباشـرة إلـى المصـرف، لإنجـاز الأعمـال اللعينـة التـي كـان علـيَّ أن أوجلها لأجل خـاطر الأرنـب أوشـوايا. وفي طريق العودة، اشتريتُ بعض المواد التموينية.

والمعروف أن هذا الأرنب يفتقر إلى جهاز لمضغ الطعام، لذلك فإن أفضل حل عملي هو تقطيع الطعام سهل الهضم إلى قطع صغيرة، مع خلطها بـبعض الحليـب والحمـص. ثـم أقـوم بتقليـب ذلـك كلـه، مسـتخدمًا ملعقـة خشبية. وقد تقبل أوشوايا ما أعددتُه لـه، بعد أن تشممه، وراح يزدرده ببطء شديد.

ومن أجل أوشوايا، قمت بنقل قطع أثاث غرفة المعيشة القليلة، من كرسيين متواضـعين، وكرسـي مـزدوج، وطاولـة جنـب صـغيرة، إلـى غرفـة الطعـام، مكوَّمة أمام مائدة الطعام ومقاعدها. وتوفرت للأرنب أوشوايا حرية الحركة والراحة، وله أن ينمو كيف يشاء.

وها هو في وضعه الجديد، وقد انتفت عدوانيته تمامًا، بل أصبح كسولًا غير مبالٍ. وكنت أنتظر حتى تظهر عليه علامات النعاس لأذهب إلى غرفة النوم، وادخل السرير، وبذلك يكون يومي قد انتهى.

وفي الصباح، أجد أن الأرنب أوشوايا قد عاد إلى القفص، معلنًا إذعانه، فأشعر بأن لا موجب لإغلاق الباب، ولأدعه يقرر متى يدخل محبسه، ومتى يغادره.

والثابت تمامًا أنه يُخرج فضلاته عند منتصف ليل الأيام الفردية. وإذا فكر أحد، على سبيل الهزل، بطبيعة الحال، أن يجمع تلك المجسمات الخضراء الصغيرة، ذات الطابع المعدني، في كيس، ويهزها، يصدر عنها صوت حسن، لإيقاعه طابع كاريبي، نوعًا ما.

(4)

والحقيقة هي أنه لا يجمع بيني وصديقتي (فانيسا جونكالفيس) إلا القليل، فهي مختلفة عني بشكل واضح. فبدلًا من أن تبدي إعجابها بالصفات الحميدة العديدة للأرنب أوشوايا، راحت تفكر في أنه من الأفضل أن نسلخه، لتحصل على معطف من الفراء لنفسها، وفي أن ذلك يمكن أن يتم ليلًا، حيث يكون جسم الحيوان ممدودًا، ومسطح جلده عريضًا بما يكفي لإزاحة الأضلع الغضروفية إلى الحواف، حتى لا تعترض عملية الشق والقص.

وكنتُ راغبًا عن مساعدتها في هذا الأمر، وقد تمكنتْ، وهي مسلحة بمقص حياكة، لا أكثر، من تخليص الأرنب أوشوايا من كل ما على ظهره من جلد، وذهبت به إلى الحمام، حيث وضعته في حوض الاستحمام، واستخدمت الماء والمنظفات في إزالة أي راتينجات أو عصارة صفراء علقت به. ثم جففته بمنشفة، وطوته، ووضعته في كيس بلاستيكي، أخذته وذهبت إلى منزلها سعيدة.

ولا يستغرق تجديد الجلد تمامًا أكثر من ثمانٍ إلى عشر ساعات. وكانت لفانيسا تطلعات لتنفيذ مخطط رائع، يتلخص في أن تقوم بسلخ الأرنب أوشوايا كل ليلة، وبيع فرائه. ولم أكن لأسمح لها بذلك، فأنا لا أريد أن يتحول اكتشافٌ علميٌّ بهذه الأهمية إلى مشروع تجاري مُبتذَل. ومع ذلك، أبلغتْ جمعيةٌ بيئية عن هذا الأمر، ونشرت إعلانًا صحفيًا مدفوعًا، تتهم فيه من أسمتها (فاليريا جونزاليس)، بالاشتراك معي، بالقسوة على الحيوانات.

وكنتُ أعلم مُسبقًا أن الأرنب سيستعيد، مع مقدم الخريف، لغة التخاطر. وبالرغم من محيطه الثقافي المحدود، فقد تمكنا من تبادل الحديث على نحو مقبول، بل وأسسنا ما يمكنني تسميته دستورًا للتعايش. وأخبرني الأرنب أنه لم يكن محابيًا لفانيسا، وكان من السهل لي أن أعرف السبب. وطلبتُ من صديقتي ألا تأتي إلى المنزل بعد الآن. ويبدو أنه، من باب الامتنان لي، لم يعد الأرنب أوشوايا يتحرك في دائرة واسعة ليلًا، فأصبح باستطاعتي أن أعيد كل قطع الأثاث إلى غرفة المعيشة.

وصار الأرنب أوشوايا ينام على المقعد المزدوج، ويوزع مجسماته المعدنية على السجادة. وهو لا يُفرِط في الأكل أبدًا، وله صفات أخرى كثيرة يُقاسُ بها سلوكُه، ويستحق الثناء والاحترام.

(5)

ووصل تأدبُ وفعاليةُ الأرنب لحد أنه سألني رأيي في حجمه النهاري الذي أجده مثاليًا. فقلت، لو كان الأمر بيدي لفضَّلتُ حجم صرصور، إلا أنني أدرك أن هذا الحجم الصغير يُعرِّضُ الأرنب أوشوايا لخطر أن يُداسَ عليه، إن لم يكن قتله. وبعد عدة محاولات لاتخاذ قرار بهذا الشأن، رأينا أنه يمكن للأرنب أوشوايا أن يستمر في الاستطالة ليلًا، ليصل إلى حجم كلب بالغ الضخامة، أو ربما نمر؛ أما نهارًا فإن المثالي له أن يكون بحجم قط متوسط. إن ذلك سيتيح لي أن آخذ الأرنب أوشوايا على ركبتي وانا أشاهد التلفاز، حيث أستطيع تمسيد ظهره وأنا مشغول الذهن.

لقد ربطت بيننا صداقة قوية، حتى أننا لم نكن نحتاج في بعض الأحيان إلا لتبادل النظرات ليفهم أحدنا الآخر. وللأسف، فإن هذه القدرات التخاطرية لم تكن تنشط إلا في شهور الشتاء، وتختفي بمجيئ أول موجات احترارية. ونحن الآن في آخر شهور الشتاء، ويدركُ الأرنبُ أوشوايا أنه لن يكون متاحًا له، في الشهور الستة القادمة، توجيه أسئلة إليَّ، أو أن يبدي اقتراحات، أو يحصل على نصيحة مني، أو أن يتلقى تقريظًا.

وقد أصابه في الآونة الأخيرة مسٌّ من جنون متكرر، فيروح يردد إنه الفرد الوحيد من نوع أوشوايا الباقي في خريطة الحياة على الأرض، وكانني لا أعلم. وهو يعرف أنه لا أمل لديه في أن يتوالد، لكنه لم يشر أبدًا إلى أن هذا الأمر يزعجه أم لا، بالرغم من أنني سألته عن ذلك مرارًا وتكرارًا. ثم

إنه يداوم على سؤالي، كل يوم، وعدة مرات في اليوم الواحد، عن جدوى الاستمرار في الحياة على هذا النحو. صحيح أنه بصحبتي، ولكنه وحيد في العالم الخالي من أي مخلوقات أخرى تنتمي لنفس نوعه. وهو لا يستطيع أن يقتل نفسه، ولا أنا بمستطيع أن أقتل مثل هذا الحيوان الجميل الودود، حتى إن كنت قادرًا على ذلك.

وهكذا، وبعد طول معاناة من ضربات البرد الأخيرة هذا العام، أواصل محادثتي مع الأرنب أوشوايا، وانا أمسِّدُ ظهره، مشغول الذهن.